المحاضرة السادسة مضامين شعر الزهد في الشعر العباسي

تمهيد:

يميل بعض الدارسين للأدب الجاهلي وتاريخه، وقضاياه أن الزهد قضية دينية قديمة، كان ينادي به المتدينون أو بعض معتنقي الديانات النصرانية. حيث نجد أن فؤاد أفرام البستاني يذهب إلى القول بهذا الرأي، في دراسته للزهد في الشعر الجاهلي: "وإذا اجتزنا ذكر الفناء إلى نوع الزهد في الدنيا، نرى أمية بن أبي الصلت يرفع لواءه، فيستكُّ بالأصنام، ويحرم الخمر، ويلبس المسوح، وينادي بالحنيفية وهي دين قوم من العرب يزعمون أنه دين إبراهيم الخليل"[1].

وهذا الزعم من فؤاد أفرام البستاني لا يمكن أن يقابل بالرفض، فهناك آثار أدبية من أشعار الجاهليين تدعمه، وتؤيده، فقد روي عن أمية بن أبي الصلت أبيات تحمل معاني الزهد في الدنيا وعدم الركون إليها، لأنها فانية، ومن أقواله الشعرية:[2]

كُـــلُّ ديـــن يـــوم القيامـــة عنـــد الـــ لّـــــهِ إلاَّ ديـــــن الحنيفـــــة زور

وقال في فناء البشر:[3]

وكُـــــلُّ مُعَمِّـــــرٍ لابـــــد يومـــــا وذي دنيـــــا يصـــــير إلـــــى زوال

ويفنـــــى بعـــــد جِدَّتِـــــهِ ويَبْلَـــــى ســـــوى البـــــاقي المقـــــدَّس ذي الجـــــلال

والحق أن نزعة الزهد بدأت مع صدر الإسلام، يقول شوقي ضيف: تتردد في القرآن الكريم دائما الدعوة إلى الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، وهي دعوة تحمل في تضاعيفها الحث على التقوى والعمل الصالح، فالمسلم الحق من عاش للآخرة، ورفض عرض الدنيا. فلم يأخذ منه إلى بحظ محدود، حظ يقيم أوده، ويعده للكفاح في سبيل الله"[4].والقرآن الكريم يميل إلى ذم الدنيا وزينتها، ويقلل من شأنها، لأنها زائلة، فانية،فهي ليست دار بقاء يطمئن إليها المؤمن، بل هي مجرد معبر إلى الدار الآخرة، التي وصفها الله بأنها دار المقام والخلود، ومن ثم فنحن إزاء ثنائية ضدية هي الدين والدنيا.

وقد لقيت هذه الدعوى صدى كبيرا في نفوس المسلمين، "فلقد أضاءت هذه الدعوة والمواعظ القرآنية بنورها قلوب المسمين الأوائل، وملأت صدورهم وضمائرهم بمثالية روحية سامية، تمثلت بالعبادة والتبتل ومجاهدة النفس ورياضتها في الصوم والصلاة؟، فمال كثير من الصحابة الذين رافقوا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الزهد والتقشف، معرضين عن مغريات الحياة الدنيا وحطامها الزائل، داعين إلى الجهاد

---

[1]- فؤاد أفرام البستاني: الشعر الجاهلي، نشأته- فنونه- صفاته، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1927، ص26.

[2]- أبو فرج الأصفهاني: الأغاني، تح. احسان عباس، وآخرون، (ط1)، دار صادر بيروت، لبنان، 2002، المجلد الرابع، ص97.

[3]- أمية بن أبي الصلت: ديوان أمية بن أبي الصلت، سجيع جميل الجبيلي، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1998، ص101.

[4]- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، (ط6)، دار المعارف، بمصر، القاهرة، 1973، ص369.

والعمل المثمر، مقتدين بزاهد الأمة الأول"[1].وقد ضرب الصحابة الكرام أروع الأمثلة في الزهد والورع، وذم الدنيا، ورأينا الكثير منهم لا يلقي لها بالا ولا يجتهد في تحصيل ما فيها من لذة ومتاع، ذلك أنهم تأثروا بعمق بالآيات القرآنية التي تدعوا إلى الزهد في الدنيا، والتعلق بالآخرة، والعمل لنيلها فهي دار الخلود.

بدايات الزهد في العصر العباسي:

إذا كان الدكتور شوقي ضيف يرجع تاريخ الزهد في الشعر العربي إلى العصر الأموي، فإن الدكتور محمد مصطفى هدّارة يرى أن ما قيل من أشعار في غرض الزهد، على لسان شعراء العصر الأموي، ما هو إلا إرهاصات أو مقدّمات ليس إلا، يقول: "ونحن وإن كنا نتفق مع شوقي ضيف في أكثر من موضع في حديثه عن نشأة الزهد وظهوره في الشعر الأموي، إلا أننا نرى أن مثل هذه الأشعار التي ظهرت في القرن الأول ليست هي الشعر الزهدي الذي ظهر في القرن الثاني، وأنها تختلف عنه اختلافا جوهريا لا يمكن التغاضي عنه، بحيث يمكننا أن نعتبر هذا الشعر الذي توجد فيه عناصر من الزهد والتقوى والإيمان والذي ظهر في القرن الأول، إرهاصا للشعر الزهدي الذي برز في القرن الثاني وكان اتجاها جديدا من اتجاهات الشعر العربي"[2].وقد بنى الدكتور مصطفى هدارة هذا الرأي على أساس الخصائص التي تفرق بين العصرين؛ الأموي والعباسي من حيث الثقافة والانتماء إلى الإسلام نفسه. وأن العصر العباسي هو عصر عرف ثورة فكرية وأدبية وسياسية، عملت على بروز الجديد في كل نواحي الحياة، وكان شعر الزهد أحدها، وبهذا يرى أن الظهور الحقيقي لغرض الزهد كان في العصر العباسي، يقول: "وأول حقيقة ينبغي التنبه إليها أن الزهد في القرن الثاني إنما هو مذهب له خصائص معينة وله أصول وعناصر يرتكز عليها، وليس مجرد ميل فطري إلى الزهادة وتقوى الله، أو حالة من حالات الإيمان يصورها الشاعر، كما يصور أي شعور ينتابه أو يعرض له"[3]، وبهذا يميز الدكتور مصطفى هدارة بين الزهد الذي هو فطري، والزهد كموضوع شعري مستقل.

وعن سبب نشأة الزهد تقول الدكتورةزينب سيد نور: "يمكن القول بأن الزهد في العصر العباسي كان بسبب أمرين ظاهرين: الأول أنه ردة فعل مباشرة على ما كان يشيع في المجتمع من مجون وفسق، فقد كان المجتمع آنذاك فيه عدة جوانب اجتماعية: مجتمع مسجد، وفيه حلقات الوعظ والارشاد، ومجتمع قصر الخلافة، وفيه خلط بين الوعظ والارشاد حينا، ومجتمع السمر واللهو، ومجتمع الحانات ودور القيان، وما فيها من مجون وفسق وانحلال"[4].

---

[1]- عبد الهادي الفكيكي: الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، (ط1)، دار التميز للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1996، ص16.

[2]- محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1963، ص284.

[3]- المرجع نفسه، ص 284.

[4]- زينب سيد نور: شعراء الزهد في العصر العباسي الأول، دار الجنان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016، ص21.

وهذا الأمر طبيعي في المجتمع العباسي الذي تتصارع فيه الثقافات، والعادات والتقاليد المتنوعة، بتنوع الأجناس البشرية، فهو عصر امتزاج الثقافات والتوجهات، فإذا كان لتيار اللذة والمتعة مناصروه، فإن لتيار الزهد مناصرون أيضا. وهما دون شك متناقضان.أما الأمر الثاني، "فهو تسرب فكري متعمد من قبل زعماء التيارات الفكرية الفاسدة مثل المانوية، وكذلك هو تأثر بالعقائد المجاورة اجتماعيا مثل النصرانية حيث يوجد لهم اختلاط مع المسلمين، ولابد من أثر لهذا الاختلاط"[1].فالتأثر بعقائد الأمم التي سيطرت عليها الدولة الاسلامية في العصرين الأموي والعباسي واضح في هذا العصر على وجه التحديد. ويرى شوقي ضيف أن تأثر الزهد الاسلامي بالزهد المسيحي موجود، لا يمكن إنكاره، إلا أنه يفرق بينهما، من جهة التوجه الذي يقوم عليه كل منهما، يقول في هذا: "ونحن لا نمنع التأثر العام، ولكن ينبغي أن يستقر في نفوسنا أن الزهد الاسلامي يختلف عن الزهد المسيحي في جوهره، إذ الزهد عند المسيحيين ورهبانهم يقوم على أساس من فكرة الخطيئة، والاسلام لا يقر هذه الفكرة وما تؤدي إليه من تعذيب الجسد، فإن لبدن المسلم عليه حقا، ومن أجل ذلك نهى الإسلام عن العزوبة، بينما دعت إليه المسيحية"[2].

وبناء على هذا، فإن الزهد موجود في كل الديانات، باعتباره نزعة روحية، يتركز في المقومات الدينية والتعاليم التي تقوم عليها، وبهذا ترى الدكتورة زينب سيد نور أن للزهد ثلاثة أوجه، هي[3]:

أولا: زهد ديني صحيح، يخلص فيه المرء دينه لله.

ثانيا: زهد مال إليه نفر من الناس بسبب الحرمان.

ثالثا: زهد مانوي مارق، وهذا الذي يمكن ربطه بالبوذية.

أما الأستاذ عبد الهادي الفكيكي، فينكر هذا الرأي، ويرى أن الزهد كان أثرا من آثار القرآن في اللغة العربية وآدابها عامة، فيقول: "إن الزهد في الشعر العربي شاع في الصدر الأول من عصر الرسالة فكان أثرا من آثار القرآن (...) أما قول بعض الأدباء الدارسين: إن أبا العتاهية هو الذي نهج الشعراء منهاج الزهد والعظات فاقتفوا أثره فيها، وما عرضه بعضهم بما يوحي للقارئ أنه وليد العصر العباسي، مما أفرزته الأوضاع السياسية والاجتماعية التي تردت منذ عهد "المهدي" خاصة، فليس دقيقاً، بل هو رأي غير صحيح"[4]. ويمكن أن يكون هذا الرأي قريبا من الحقيقة إذا اعتبرنا أن هؤلاء الزهاد يعيشون خارج إطار الظروف الاجتماعية والسياسية التي عرفها العصر العباسي.ومهما يكن من أمر نشأة الزهد وأسبابه، فإن بين أيدينا تراثا شعريا في موضوع الزهد يمكن دراسته وفق المناهج النقدية المعاصرة، وهي وحدها التي يمكنها أن تميط اللثام عن قضايا الزهد.

موضوعات الزهد في الشعر العباسي

تمهيد:

---

[1]- زينب سيد نور: شعراء الزهد في العصر العباسي، ص21.

[2]- شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، (ط8)، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1966، ص86.

[3]- زينب سيد نور: المرجع السابق، ص22.

[4]- عبد الهادي الفكيكي: الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، ص 18-19.

تعددت موضوعات شعر الزهد في العصر العباسي، تعددا ينم عن الثقافة الواسعة التي يتمتع بها شعراء الزهد، كما ينم عن تأثرهم الكبير بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، باعتبارهما أهم المصادر الدينية التي أسهمت بشكل واضح في بلورة التجربة الشعرية لدى الزهاد مما سهل عليهم الخوض في موضوعات كثيرة، لا تخرج في جملتها عن دائرة الوعظ والتزهيد في الدنيا وفيما يلي بعض الموضوعات الزهدية، وهي كالآتي:

أ- **الموت:** يعد الموت من أكثر الموضوعات شيوعا في شعر الزهد زمن العصر العباسي، فقد "أكثر الشعراء من ذكر الموت والوعظ به، واعتبروه النهاية المحتومة التي لا مهرب منها، ولا يمكن جحدها، ولا يملك أحد ردّها ولها وقت معلوم لا تستقدم عنه ولا تستأخر"[1]. ومن نماذج الحديث عن الموت ما جاء في شعر الصنوبري:[2]

مـــــا ولـــــدت نفـــــس أرضـــــعت ... مـــــا نوهـــــت نفـــــس ولا متعـــــت

مـــــا قـــــدرت أرزاق أيامنـــــا ... فضـــــيقت فـــــي القـــــدر أو وســـــعت

إلا لتـــــدعى عـــــن ميقاتهـــــا ... حتـــــى إذا مـــــا دعيـــــت أســـــرعت

وقوله أيضا:[3]

أذكـــــر المـــــوت واعتبـــــر ... واصـــــدق الـــــنفس وازدجـــــر

مـــــن سيمـــــضي إلـــــى القبـــــو ... رغـــــدا مثـــــل مـــــن قبـــــر

ويقول في ذكر الموت الذي لا مفر منه:[4]

كـم اختطـف الـردى مـن فـوق حصـن ... كـم انتـزع الـردى مـن فـوق سـور

وكـم ممـن غـدا فـوق الحشـايا ... وبـات مغيبـا تحـت الصـخور

وكـم لـك مـن أخ قـد سـار أو مـن ... أخ سيسـير عنـك علـى سـرير

في هذا السياق يؤكد أبو العتاهية على حتمية الموت الذي لا يقف في طريقه حرس أو إنس أو جن، فيقول:[1]

---

[1]- نزار عبد الله الضمور: الزّهد في الشعر العباسي، ط1، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2012، ص58.

[2]- الصنوبري: ديوان الصنوبري، تح. احسان عباس، ط1، ر صادر، بيروت، لبنان، 1998، ص292.

[3]- المصدر نفسه، ص 84.

[4]- المصدر نفسه، ص 85.

ما يدفع الموت أرصاد ولا حرسُ ... ما يغلب الموت جنّ ولا أنس
ما إن دعا الموت أملاكا ولا سوقا ... إلا ثناهم إليه الصرع والخلس
للموت ما تلد الأقوام كلهم ... وللبلى ما بنوا، وما غرسوا
هلاّ أبادر هذا الموت في مهل ... هلا أبادره ما دام لي نفس
يا خائف الموت! لو أمسيت خائفه ... كانت دعوعك طوال الدهر تنبجس

وقد أكثر الشاعر أبو العتاهية من ذكر الموت في شعره الزهدي باختصاصه في الزهد، وفاق فيه كل شعراء العصر العباسي الذي عاش فيه.

2- **التنفير من الدنيا:** ارتبط ذم الدنيا والتنفير منها بشعر الزهد، فكان الشعراء يزهدون الناس فيها وبخاصة أولئك الذين غلبت عليهم النزعة الزهدية في أواخر حياتهم، ومنهم أبو العتاهية الذي كان يذم الدنيا ويزهد في نعيمها، ويعيب على من يغره رونقها، ويطغيه زبرجها"[2]، يقول أبو العتاهية:[3]

لعمرك، ما الدنيا بدار بقاء ... كفاك بدار الموت دار فناء
فلا تعشق الدنيا أُخيَّ فإنما ... يرى عاشق الدنيا بجهد بلاء
حلاوتها ممزوجة بمرارة ... وراحتها ممزوجة بعناء
فلا تمش يوما في ثياب مخيلة ... فإنك من طين خلقت وماء

ولأبي جعفر القرشي كلام جميل، يذم فيه الدنيا، يقول فيه:[4]

يا عاشق الدنيا وللد ... نيا سماديرو وسكر
اسمع لموعظة الزما ... ن فما بسمعك وقر
كم قد مضى ملك له ... نظر إلى الجلساء شزر
وله مباهاة بما ... لم يبق فيه له فخر

3- القناعة: القناعة هي الرضا بالقليل من أمور الدنيا، الحلال الذي يعز صاحبه خير من الكثير الحرام، وقد حث الإسلام على القناعة ورغب فيها، وقد تأثر الشاعر العباسي بتعاليم الدين، وأصبح يحث الناس عليها؛ فهذا "أبو العتاهية يفضل الرضا بالقليل، مع الكرامة على الكثير مع الهوان والذل، فرغيف

---

[1]- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1986، ص 224.

[2]- محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي، ط2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1937، ج2، ص 452.

[3]- أبو العتاهية: ديوان أبو العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1986، ص12.

[4]- ابن أبي الدنيا: "موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا"، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1993، ج2، ص 75-76.

خبز وكوب ماء، وغرفة ضيقة، ومسجد معزول تكعف فيه، خير من الكثير، إنها القناعة بما قسم الله له"[1]. ومن النماذج الشعرية الزهدية، التي تناولت هذا الموضوع قول أبي العتاهية:[2]

رغيف خبز يابس تأكله في زاوية
وكوب ماء بارد تشربه من صافية
وغرفة ضيقة نفسك فيها خالية
أو مسجد بمعزل عن الورى في ناحية
تدرس فيه دفترا مستندا بسارية
معتبرا بمن مضى من القرون الخالية

ومن الشعر الذي يحث على القناعة، قول الشاعر العباسي محمود الوراق:[3]

إن القناعة ما علمت غنى والحرص يورث ذا الغنى فقرا

ومن أقوال أبي العتاهية في القناعة أيضا:[4]

وسربلت أخلاقي قنوعا وعفة فعندي بأخلاقي كنوز من الذهب
فلم أرحظا كالقنوع لأهله وأن يجمل الانسان ما عاش في الطلب

ومن ذم الدنيا قول أبي العتاهية:[5]

طلبتك يا دنيا فأعذرت في الطلب فما نلت إلا الهمّ والغمّ والنّصب
فلما بدا لي أنني لست واصلا إلى لذة إلا بأضعافها تعب
وأسرعت في ديني، ولم أقض بغيتي هربت بديني منك، إن نفع الهرب
تخليت مما فيك جهدي وطاقتي كما يتخلى القوم من عرة الجرب
فما تم لي يوما إلى الليل منظر أسرّبه، إلا أتى دونه شغب

---

[1]- حسن فالح البكور: دراسات في الشعر العباسي الرؤيا والتشكيل، دار الخليج، للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص30.

[2]- عبد العزيز المحمد السلمان: مجموعة القصائد الزهديات، (ط1)، مطابع الخالد للأوفيست، الرياض، المملكة العربية السعودية، ج2، ص 315.

[3] محمود الوراق: ديوان الزهد والحكمة، شعر محمود الوراق، جمع وتحقيق، أيمن السيد علي الصياد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ص 67.

[4]- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص49.

[5]–المرجع نفسه، ص49.

من خلال هذه النماذج لشعرية نجد أن شعر الزهد كام منصبا في بعض موضوعاته على ذم الدنيا الفانية، وعلى التحذير منها، فهي لم تصف لأحد من الناس، فلا يثق فيها إلا مغرور جاهل، قد فتن بزا. ولم يخل يوان شعري لشعراء العصر العباسي من قصائد تحط من قيمة الدنيا وتزهد في نعيمها.

4- التوبة والإنابة:التوبة من أهم الموضوعات أو القضايا التي كثر الحديث عنها في شعر الزهد العباسي، ومعناها: "الرجوع إلى الله بحل عقدة الاصرار عن القلب ثم القيام بكل حقوق الرب"[1]، وهي أيضا تعني العبد على ذنوب ن قد ارتكبها ولإقلاعه عنها، ومن المعلوم ن الله يرغب المؤمنين به إلى التوبة وبهذا هما "من الأخلاق الاسلامية دعا إليها ديننا الاسلامي الحنيف وعموده القرآن الكريم، فلقد ارتبطت التوبة بصفات المسلمين العائدين إلى رحاب الرحمة الإلهية أخطاء أو ذنوب ارتكبوها لحظات من الضعف أو النسيان أو اللهو أو السهو"[2]؛ والنفس أمارة بالسوء قد تغلب المؤمن، هو ضعيف وخطاء بطبعه، لكن المؤمن سرعان ما يعود إلى ربه تائبا مستغفرا قبل أن يدركه أجله وقد عبر أبو العتاهية عن موضوع التوبة في شعره الزهدي، مرغبا فيها، حيث يقول:[3]

خانـــك الطـــرف الطمـــوح أيهـــا القلـــب الجمـــوح
لـــدواعي الخيـــر والـــشّر دنـــو ونـــزوح
هـــل لمطلـــوب بـــذنب توبـــة منـــه نصـــوح
لتمـــوتنّ وإن عمـــرت مـــا عمّـــر نـــوح

وما دام أبو العتاهية يتكلم على التوبة النصوح، فإنه يتخذ من القرآن الكريم مصدرا يقتبس منه المعاني والألفاظ، من قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري منتحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبيَّ والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبإيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير" (سورة التحريم، الآية: 08). ومن شعر التوبة الذي يدعو الشاعر فيه نفسه إلى التوبة من ذنوب اقترفها، ويستغفر ربه ويتوب إليه ما روي من أبي القاسم بن يوسف، في قوله:[4]

إلـــى الله مـــن عـــودتي تـــوبتي أتـــوب إليـــه واســـتغفره
وأثنـــي عليـــه بآلائـــه ثنـــاء الشـــكور ولا أكفـــره
وأخلـــع مـــن دونـــه مـــن دعـــا إلهـــا ســـواه ومـــن يفجـــره
واســـتغفر الله ممـــا جنيـــت ومـــا قـــد نســـيت ومـــا أذكـــره

---

[1]- زينب سيد نور: شعراء الزهد في العصر العباسي الأول، دار الجنان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص65.
[2]- زينب سيد نور: شعراء الزهد في العصر العباسي الأول، ص65.
[3]- مؤلف مجهول: أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تح. د. شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، سوريا، 1965، ص 97-99.
[4]- أبو بكر الصولي: كتاب الأوراق، قسم أخبار الشعراء، تح. "ج. هيورث د ن"، ط1، مطبعة الصاوي، مصر، 1934، ص149.

وممـــا أحـــاط بـــه علمـــه وأتقنـــه كاتـــب يســـطره
لألقـــى الالـــه ولا ذنـــب لـــي أســـائل عنـــه ولا أحـــذره
إذا كـــان يـــأتي الـــذي لا يريـــب ويتـــرك منـــه الـــذي يفجـــره
كـــذاك روينـــا عـــن المصـــطفى وأصـــحابه فـــي الـــذي نـــاثره

المتأمل في هذه الأبيات يجد أن معانيها مأخوذة من القرآن الكريم، في قول الله عز وجل: "إلّا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما" (سورة الفرقان، الآية: 71).مما نلاحظ حول موضوع التوبة في شعر الزهاد أن معجمه اللغوي والشعري يعتمد على القرآن الكريم في استلهام الألفاظ والمعاني المتعلقة بالاستغفار من الذنب والعودة إلى الله قبل فوات الأوان.

5- الوعظ والنصح:النصح والارشاد من أهم موضوعات شعر الزهد في العصر العباسي، حيث يستلهم الشاعر ألفاظه ومعانيه من التراث الإسلامي، في مصدريه: القرآن والحديث والسنة النبويةوالوعظ في أصله من أعمال الوعاظ والخطباء الذين ساهموا في توفير المعاني للشعراء، كما يرى شوقي ضيف حيث يقول: "وممن يكثر من إنشاد الشعر في مواعظه سفيان بن عيينة وسفيان الثوري، وكأن الوعاظ بذلك قدموا مادة واسعة لمعاصريهم من الشعراء كي يصوغوا على نمطها مواعظ تذكر الزهد والعمل الصالح في نفوس الناس"[1]؛ فهذا الموضوع الشعري يعتمد على منجزات الوعاظ من العلماء والزهاد، الذين تحقق فيهم الزهد قولا وعملا[2].وللوعظ أساليب يستخدم فيها ذكر الموت وحوادث الزمان، والحث على الصبر، والجهاد في عمل الخير إلى غير ذلك من المعاني، ومن القصائد الوعظية ما جاء في كتاب "التبصرة في الوعظ"، حيث يقول أحد الشعراء:[3]

اصـــبر لمـــرّ حـــوادث الـــدهر فلتحمـــدن مغبّـــة الصّـــبر
واجهـــد لنفســـك قبـــل ميتهـــا واذخـــر ليـــوم تفاضـــل الـــذخر
فكـــأنّ أهلـــك قـــد دعـــوك فلـــم تســـمع وأنـــت محشـــرج الصّـــدر
وكـــأنهم قـــد قلبـــوك علـــى ظهـــر الســـرير وأنـــت لا تـــدري
وكـــأنهم قـــد زودوك بمـــا يتـــزود الهلكـــى مـــن العطـــر
يـــا ليـــت شـــعري كيـــف أنـــت علـــى نـــبش الضـــريح وظلمـــة القبـــر
ويـــا ليـــت شـــعري كيـــف أنـــت إذا غسّـــلت بالكـــافور وبالسّـــدر
يـــا ليـــت شـــعري مـــا أقـــول إذا وضـــع الكتـــاب صـــبيحة الحشـــر

[1]- شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ط8، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص400.

[2]- ينظر، مازن طلال الناصر: المنظومات التعليمية في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص137.

[3]- عبد الرحمان بن الجوزي: التبصرة، تح. مصطفى عبد الواحد، ط1، دار السلام، القاهرة، مصر، 2012، ج1، ص38.

ما حجتي فيما أتيت على ... علم ومعرفة وما عذّري
يا سوأتا مما اكتسبت ويا ... أسفي على ما فات من عمري
ألّا أكون عقلت شأني فاستقبلت ... ما استدبرت من أمري

ومن شعر الوعظ، قول أبي العتاهية:[1]

قد سمعنا الوعظ لو ينفعنا ... وقرأنا جلّ آيات الكتب
كلّ نفس ستوفّى سعيها ... ولها ميقات يوم قد وجب
جفت الأقلام من قبل بما ... ختم الله علينا وكتب
كم رأينا من ملوك سادة ... رجع الدّهر عليهم فانقلب
وعبيد خوّلوا ساداتهم ... فاستقر الملك فيهم ورسب
لا تقولن لشيء قد مضى ... ليته لم يك بالأمس ذهب

ويقول أبو العلاء المعري:[2]

وعظ الزمان فما فهمت عظاته ... وكأنه في صمته يتكلم
لو حاورتك الضأن قال حصيفها ... الذئب يظلم وابن آدم أظلم
صبرا على دنياك ينقض حينها ... فكأنها حلم بنوم يحلم
ولربما قضت الأناة مآربا ... من نازح ولكل عال سلّم
كل تسير به الحياة وما له ... علم على أي المنازل يقدم
ومن العجائب أننا بجهالة ... نبني وكل بناء قوم يهدم
وأضيع أوقاتي بغير ندامة ... ويفوتني الشيء اليسير فأندم

يعتمد الوعظ في شعر الزهد العباسي على أصول الدين الإسلامي ومفاهيمه، وأول هذه الأصول هو القرآن الكريم، حيث يوفر للشاعر معجما لغويا ثريا بالألفاظ الدالة على حقل الزهد، والمعاني التي تحمل كل الدلالات المرتبطة به، حيث "تتردد المعاني التي تدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، وهي دعوة تحمل في تضاعيفها الحث على التقوى والعمل الصالح"[3]. وقد وردت في الشواهد الشعرية السابقة مجموعة من المعاني الوعظية، نجملها فيما يأتي:

[1]- مؤلف مجهول: أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تح. شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1965، ص 29-30.
[2]- أبو العلاء المعرّي: ديوان اللزوميات، تح. د. عمر الهباع، دار الأرقم ابن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ج1، ص288-289.
[3]- يونس اللهيبي: أدب زهاد التابعين موضوعاته وفنونه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ص209.

- الصبر على حوادث الدهر وصروفه.
- التذكير بالموت والقبر وحياة البرزخ.
- التخويف من لحظة خروج الروح من الجسد.
- التذكير بيوم البعث والحساب على الأعمال.
- بيان حقيقة الدنيا وزوالها وانقلابها على أهلها.

6- الشيب: الشيب من الموضوعات التي أخذت حيزا لا بأس به في الشعر العربي القديم، وفي شعر الزهد بشكل خاص، ومن المعلوم أن للشيب أثرا كبيرا في نفس الشاعر الذي يبدي قلقا وتخوفا. أمام الشيب كونه علامة على ذهاب الشباب ودخول الشاعر في الشيخوخة واقترابه من الموت، وهذا ما يعترف به الدكتور أحمد علي الفلاحي، بقوله: "لذلك نرى أن ظهور الشيب في رأسه جعل هاجس الخوف من الموت ملازما له فكان يكثر من تصوير الشيب الذي يعني له بداية النهاية أو الاقتراب من الموت"[1]؛ وهذه الفكرة يندرج تحتها ما قيل من شعر سواء أكان في موضوع الزهد أم في غيره من الموضوعات، مع اختلاف في الطرح والتعبير والتصوير. ومن نماذج موضوع الشيب في شعر الزهد، قول أبي العتاهية وهو يشكو ألم الشيب، ويبكي على شبابه:[2]

بكيت على الشباب بدمع عيني ... فلم يغن البكاء ولا النحيب
فيا أسفا أسفت على شباب ... نعاه الشيب والرأس الخضيب
عريت من الشباب وكأن غَضًّا ... كما يعرى من الورق القضيب
فيا ليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب

ويقول أيضا:[3]

رأيت الشيب يعروكا ... بأن الموت ينحوكا
فخذ حذرك يا هذا ... فإني لست آلوكا

ويقول أيضا:[4]

كبرنا أيها الأتراب حتى ... كأنّا لم نكن حينا شبابا
وكنا كالغصون إذا تثنت ... من الريحان مونعة رطابا
إلى كم طول صبوتنا بدار ... رأيت لها اغتصابا واستلابا
ألا ما للكهول وللتصابي ... إذا ما اغترّ مكتهل تصابا

---

[1]- أحمد علي الفلاحي: الصورة في الشعر العربي، (ط1)، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص86.
[2]- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص46.
[3]– أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص46.
[4]- المرجع نفسه، ص32.

فزعـــت إلـــى خضـــاب الشـــيب منـــي وإن نصـــوله فضـــح الخضـــابا
مضـــى عنّـــي الشـــباب بغيـــر ردّ فعنـــد الله احتســـب الشـــبابا
ومـــا مـــن غايـــة إلّا المنايـــا لمـــن خلقـــت شـــبيبته وشـــابا

تشكل ثنائية الشباب والشيب في شعر الزهد بصفة عامة، وفي شعر أبي العتاهية بصفة خاصة، ثنائية الحياة والموت؛ فالشباب عنده يعني الحياة وأما الشيب فيعني الموت والفناء، والتعلق بالشباب في الواقع تعلق بالحياة وتشبث بها، والفزع من المشيب خوف من الموت، وأبو العتاهية دائما لا يرى في الشيب سوى الناعي الذي ينذر بدنو الأجل، ويدفع الإنسان إلى حتفه في صراع عجيب بين اندفاع إلى هاوية الموت ملح شديد وبين تشبث بالحياة يائس"[1].وقد كان الصراع بين الشباب والشيب منذ الأزل، وكانت الغلبة في النهاية للشيب، لهذا كان أبو العتاهية يقف من الشيب موقفا يدل على حيرته وخوفه منه لأنه يعني له قرب النهاية، فهو نذير الموت.

7- الحكمة: تعد الحكمة من أهم القضايا والموضوعات في الشعر العربي بصفة عامة، وفي شعر الزهد بشكل خاص، ويعرفها الدكتور محمد التونجي بأنها: "تجربة وقع بها الناس فعرضها الحكماء نثرا والشعراء نظما، ولقد استنتجوا من خلال تجاربهم واصطدامهم بأحداث الواقع حكما ترجموها كلاما بلاغيا، وألبسوها أسلوبا فنيا، وصبوها في أشعارهم بإيجاز وتماسك"[2]. وقد تركمت الحكمة في الشعر العربي بتوالي العصور من الجاهلية إلى صدر الإسلام والعصر الأموي.ولما جاء العصر العباسي عرفت الحكمة – كموضوع شعري– تطورا ملحوظا حيث أصبح بعض الشعراء يخصون الحكمة بقصائد كاملة، وتأتي مستقلة عن بقية موضوعات الشعر الأخرى، كما توسعت الموضوعات التي طرقتها الحكمة فمست كل جوانب الحياة المتعلقة بالدنيا في نواحيها الاجتماعية والسياسية والدينية. ومن شعر الحكمة المرتبط بالزهد قول أبي العتاهية:[3]

أذَلَّ الحِـــرْصُ والطَّمَـــعُ الرِّقابَـــا وقَـــد يَعفـــو الكَـــريمُ، إذا اســـتَرَابَا
إذا اتَّضَـحَ الصَّـــوابُ فـــلا تَدْعُـــهُ فإنّـــكَ كلّمـــا ذُقـــتَ الصّـــوابَا
وَجَـــدْتَ لَـــهُ علـــى اللّهَـــواتِ بَـــرْداً كَبَـــرْدِ المـــاءِ حِـــينَ صَـــفَا وطَابَـــا
ولَـــيسَ بحـــاكِمٍ مَـــنْ لا يُبَـــالي أأخْطـــأَ فِـــي الحُكومَـــةِ أمْ أصَـــابَا
وإن لكـــل تلخـــيص لوجهـــا وإن لكـــل مســـألة جوابـــا
وإنّ لكُـــلّ حادِثَـــةٍ لوَقْتـــاً وإنّ لكُـــلّ ذي عَمَـــلٍ حِسَـــابَا

---

[1]- أحمد محمد عليان: أبو العتاهية حياته وأغراضه الشعرية، ص158.
[2]- محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1999، ج1، ص376.
[3]- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص 30 وما بعدها.

وإنّ لكُـــلّ مُطّلَـــعٍ لَحَـــدّاً ... وإنّ لكُـــلّ ذي أجَـــلٍ كِتابَـــا
وكـــل سَـــلامَةٍ تَعِـــدُ المَنَايَـــا ... وكـــلُّ عِمـــارَةٍ تَعِـــدُ الخَرابَـــا
وكُـــلُّ مُمَلَّـــكٍ سَيَصِـــيرُ يَوْمـــاً ... ومـــا مَلَكَـــتْ يَـــداهُ مَعـــاً تُرابَـــا
أبَـــتْ طَرَفـــاتُ كُـــلّ قَريـــرِ عَـــينٍ ... بِهَـــا إلاَّ اضـــطِراباً وانقِلاَبَـــا
كـــأنَّ محَاسِـــنَ الـــدُّنيا سَـــرَابٌ ... وأيُّ يَـــدٍ تَناوَلَـــتِ الـــسّرابَا
وإنْ يـــكُ منيَـــةٌ عجِلَـــتْ بـــشيءٍ ... تُـــسَرُّ بـــهِ فـــإنَّ لَهَـــا ذَهَابَـــا
فَيـــا عَجَبَـــا تَمـــوتُ، وأنـــتَ تَبنـــي ... وتتَّخِـــذُ المصَـــانِعَ والقِبَابَـــا
أرَاكَ، وكُلَّمـــا فَتَّحْـــتَ بَابـــاً ... مِـــنَ الـــدُّنيَا فَتَّحَـــتَ عليْـــكَ نَابَـــا
ألَـــمْ تـــرَ أنَّ غُـــدوَةَ كُـــلِّ يـــومٍ ... تزِيـــدُكَ مِـــنْ منيَّتِـــكَ اقترابَـــا
وحُـــقَّ لمـــوقِنٍ بـــالموْتِ ألا ... يُسَـــوّغَهُ الطّعـــامَ، ولا الـــشّرَابَا
يـــدبّرُ مَـــا تَـــرَى مَلْـــكٌ عَزِيـــزٌ ... بِـــهِ شَـــهِدَتْ حَوَادِثُـــهُ وغَابَـــا
ألَـــيسَ اللّـــهُ مـــن كُـــلٍّ قَريبـــاً؟ ... بلـى مـن حَيـثُ مـا نُـودي أجابَـا
ولَـــمْ تَـــرَ ســـائلاً للهِ أكْـــدَى ... ولـــمْ تَـــرَ رَاجيـــاً للهِ خَابَـــا
رأَيْـتَ الـرُّوحَ جَـدْبَ العَـيْشِ لمَّـا ... عرَفـتَ العـيشَ مخضـاً، واحتِلابَـا
ولَسْـتَ بغالِـبِ الشَّـهَواتِ حَتَّـى ... تَعِـدُّ لَهُـنَّ صَـبْراً واحْتِسَـابَا
فَكُـلُّ مُصِـيبةٍ عَظُمَـتْ وجَلَّـت ... تَخِـفُّ إذَا رَجَـوْتَ لَهَـا ثَوَابَـا

فقد حاول أبو العتاهية أن يغطي جوانب عدة من حياة الناس، بهذه القصيدة؛ حيث يقدم فيها مجموعة كبيرة من الحكم في قالب شعري يتسم بالإيجاز والوضوح، وقوة الفكرة، من خلال اعتماده على مجموعة من الحقائق والبديهيات التي لا يختلف حولها الناس؛ إذ هي من واقع حياتهم الدينية والاجتماعية، مستغلا التراث الديني؛ من قرآن وحديث نبوي شريف، معتمدا في كل هذا على فكرة الفناء والموت التي تبرز من حين لآخر في ثنايا الأبيات.

الخصائص الفنية لشعر الزهد:

حظي شعر الزهد بعناية النقاد والدارسينّ، فقد حدّدوا موضوعاته، وقضاياه، واستنبطوا خصائصه الفنية التي يتميز بها والتي تجعله ذو مكانة مرموقة عند جميع المتلقين؛ فقد تناول الدكتور نزار عبد الله الضمور بعض من هذه الخصائص في الزهد في الشعر العباسي، بقوله: "تميزت المقطوعات الزهدية المنفصلة لهذا الغرض وحده، أو من خلال الأبيات المبعثرة بين القصائد الطويلة في الموضوعات المختلفة، بعدد من المظاهر المشتركة"[1].ويفصل هذه الخصائص بقوله أيضا: "يمكن دراستها من خلال بساطة اللغة والألفاظ ووضوحها، واستخدام أساليب النداء والاستفهام والتعجب والتكرار، وفي ألوان البديع من جناس وطباق وحسن تقسيم، أو في الصورة الشعرية بألوانها

[1]- نزار عبد الله الضمور: الزهد في الشعر العباسي، ط1، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2012، ص186.

المتعددة"[1]؛ ولا شك أن هذه الأساليب تشكل مجموعة من الأسس البلاغية أو المعايير اللغوية التي لا ينهض الشعر إلا بها، ولا تقوم بشعريته إلى على أساسها.

وفيما يلي نماذج شعرية من موضوع الزهد توضح خصائصه الفنية وتبرز جماليته البلاغية.:

1- بساطة اللغة والألفاظ: بساطة اللغة سمة من سمات الشعر الموجه إلى فئة كبيرة من المجتمع المتلقي ويصفها الدكتور نزار عبد الله المور بأنها: "فئة تلازم شعر الزهد منذ نشأته ذلك أن هذا اللون من الشعر تتطلب طبيعته هذه السهولة والبساطة، فهو ليس لفئة خاصة من الناس كالأمراء والأدباء والشعراء، وإنما هو شعر يريد الوصول إلى الناس جميعا، وحتى يفهمه الناس على اختلاف بيئاتهم وأفكارهم وطبقاتهم، كان لابد من استخدام الألفاظ السهلة المأنوسة، والتراكيب الواضحة"[2].إن البساطة بهذا المفهوم تعتمد على تحديد المتلقي ورتبته الاجتماعية والثقافية، وعلى الاستخدام اللغوي في حاليته: الافراد والتركيب، وطبعها بطابع السهولة والوضوح.

ومن نماذج الوعظ بذكر الموت، قول المتنبي:[3]

أَرَقٌ عَلـــى أَرَقٍ وَمِثلِـــيَ يَـــأرَقُ	وَجَـــوىً يَزيـــدُ وَعَبـــرَةٌ تَتَرَقـــرَقُ
أَبَنـي أَبينـــا نَحـــنُ أَهـــلُ مَنـــازِلٍ	أَبَـــداً غُـــرابُ البَـــينِ فيهـــا يَنعَـــقُ
نَبكـي عَلـى الـدُنيا وَمـا مِـن مَـعشَرٍ	جَمَعَـــتهُمُ الـــدُنيا فَلَـــم يَتَفَرَّقـــوا
أَيـــنَ الأَكاسِـــرَةُ الجَبـــابِرَةُ الأُلـــى	كَنَـزوا الكُنـوزَ فَمـا بَقـينَ وَلا بَقـوا
مِـن كُـلِّ مَـن ضـاقَ الفَضـاءُ بِجَيشِـهِ	حَتّـى ثَـوى فَحَـواهُ لَحـدٌ ضَـيِّقُ
خُـرسٌ إِذا نـودوا كَـأَن لَـم يَعلَمـوا	أَنَّ الكَـــلامَ لَهُـــم حَـــلالٌ مُطلَـــقُ
وَالمَـــوتُ آتٍ وَالنُفـــوسُ نَفـــائِسٌ	وَالمُســـتَغِرُّ بِمـــا لَدَيـــهِ الأَحمَـــقُ
وَالمَـــرءُ يَأمُـــلُ وَالحَيـــاةُ شَـــهِيَّةٌ	وَالشَـــيبُ أَوقَـــرُ وَالشَـــبيبَةُ أَنـــزَقُ
وَلَقَـد بَكَيـتُ عَلـى الشَـبابِ وَلِمَّتـي	مُســـوَدَّةٌ وَلِمـــاءِ وَجهِـــيَ رَونَـــقُ
حَـــذَراً عَلَيـــهِ قَبـــلَ يَـــومِ فِراقِـــهِ	حَتّـى لَكِـدتُ بِمـاءِ جَفنِـيَ أَشـرَقُ

نلاحظ أن المتنبي يختار لقصيدته ألفاظا مألوفة ليس فيها صعوبة ولا غرابة ينفر منها المتلقي، فهي كما يصفها الدكتور نزار الضمور: "تجري على نحو من البساطة والسهولة دون تكلف أو تصنع، ويطوف بنا مع الدنيا، والموت، وذهاب السابقين، ونهايتهم جميعا إلى القبر، ثم يقارن بين الشيب والشباب، فنلاحظ جمال الألفاظ التي اختارها، مع حسن السبك في تركيب عباراتها دون غموض أو تعقيد"[4]؛ فهذا هو الطابع الفني الذي يتصف به شعر الزهد عند المتنبي، وعند معاصريه من شعراء الزهد في العصر العباسي. فلا يحتاج إلى شروح لفهمه في ألفاظه ومعانيه.

2- استخدام الأساليب الإنشائية:يكثر شعراء الزهد من الأساليب الانشائية ذات الواقع الخطابي، ويعدها الدكتور نزار عبد الله الضمور: "من الظواهر التي تلازم شعر الزهد، ذلك أن الشاعر يقترب من الناس ويخاطب قلوبهم، ويبحث عن أساليب التأثير المباشر في نفوسهم وعقولهم، فيستخدم أساليب النداء والاستفهام والتعجب"[5]، وتسمى هذه

---

[1]- المرجع نفسه، ص 186.

[2]- نزار عبد الله الضمور: الزهد في الشعر العباسي، ص186.

[3]- المتنبي: ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1983، ص28-29.

[4]- نزار عبد الله الضمور: الزهد في الشعر العباسي، ص187.

[5]–المرجع نفسه، ص 191.

الأساليب الانشائية الأساليب الانفعالية، لأنها تجعل المتلقي ينفعل مع المخاطب أو الشاعر. وفيما يلي بعض الأساليب المميزة لشعر الزهد، وهي:

أ- **النداء**: ومنه قول الشاعر أبي فراس الحمداني في مقطوعة يرثي فيها نفسه وينادي ابنته، فيقول:[1]

أبنيتي لا تحزني كل الأنام إلى ذهاب
أبنيتي صبرا جميلا للجليل من المصاب

ومن النداء، قول الشاعر الزاهد ابن المبارك:[2]

يا جاعل الدين له بازيا يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذّاتها بحيلة تذهب الدين
وصرت مجنونا بها بعدما كنت دواء للمجانين

ومنه النداء في قول أبي العتاهية:[3]

أيها ذا الناس ما حل بكم عجبا من سهوكم كل العجب
أسقام ثم موت نازل ثم قبر ونشور وجلب

تأتي أساليب النداء على حسب حالات المنادى، قربا وبعدا، وهذا ما يدل عليه اختلاف أدوات النداء في الأبيات الشعرية المذكورة، فعندما كان المنادى هي ابنة الشاعر استعمل الهمزة (أبنيتي)، وعندما كان المنادى معينا وظف ابن المبارك الياء: (يا جاعل الدين)، وعندما كان المنادى غير معين وعلى العموم استخدم أبو العتاهية الصيغة: (أيُّهذا – أيها ذا)، وهي تختلف في درجة وقعها على المنادى قوة وضعفا، لكن دورها في الغالب هو التنبيه على أمر عظيم، يفسره الكلام الذي بعده.

ب- **الاستفهام**:الاستفهام من الأساليب الإنشائية التي يوظفها الشعراء العباسيون في شعر الزهد. وقد يأتي مع الأساليب الأخرى كالنداء والتعجب وغيرها[4]. وللاستفهام أثر كبير في نفوس المتلقين، فيبلغ الشاعر أغراضه التواصلية في الوعظ والنصح. ومن الاستفهام قول الصنوبري:[5]

وإلا فأين الأنبياء محمد وعيسى وموسى قبله وأخو موسى
وأين سليمان بن داوود وأين من حوت عرش بلقيس يداه وبلقيسا
أصابت سهام الموت هودا وصالحا ولوطا ونوحا قد أصابت وإدريسا

ومن الاستفهام قول أبي العتاهية:[6]

لدوا للموت وأبنوا للخراب فكلكم يصير إلى ذهاب
لمن نبني ونحن إلى تراب؟ نصير كما خلقنا من تراب

---

(1)- أبو فراس الحمداني: ديوان أبي فراس الحمداني، شرح خليل الدويهي، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1994، ص59.

(2)- شمس الدين السخاوي: الجواهر والدّرر في ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر، تح. إبراهيم ياجس عبد المجيد، (ط1)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1999، ج2، ص ص621-622.

(3)- مؤلف مجهول: أبو العتاهية أشعاره وأخباره، ص23.

(4)- ينظر، نزار عبد الله الضمور: الزهد في الشعر العباسي، ص191.

(5)- الصنوبري: ديوان الصنوبري، تح. إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1998، ص 169.

(6)- مؤلف مجهول: أبو العتاهية أشعاره وأخباره، ص33.

تسيطر على أبي العتاهية فكرة الموت والخراب والفناء، وهي "رؤية شمولية من خلال استخدامه لواو الجماعة: ولفظة (كل) الدالة على العموم فضلا عن دلالة اللام في قوله (للموت) على العاقبة، لأن الموت عاقبة الجميع، ثم يتساءل: (لمن نبني؟). وليس هناك مسؤول يتوجه إليه الشاعر بالاستفهام، ولا سائل إذ الشاعر غائب وراء تعبيره. ولا يسمح الاستفهام هنا بجواب"[1]؛ فالمقصود من الاستفهام في هذا البيت هو ما يديه من أغراض بلاغية تستفاد من سياق الكلام توحي بالتعجب والحيرة التي أصابت الشاعر بعد طول تأمل فيما يخلفه الموت على حياة الناس وعلى منازلهم.

جـ- التعجب:التعجب من الأساليب الانشائية التي يوظفها شعراء الزهد في قصائدهم الوعظية، شأنه شأن الأساليب الأخرى، ولهذا يعد ظاهرة فنية تميز شعر الزهاد في القصائد والمقطوعات[2]. ويؤدي التعجب أغراضا بلاغية كثيرة، فضلا عن أثره في تعميق معاني الزهد في نفوس المتلقين له. ومنه قول أبي العتاهية:[3]

ما أقرب الموت من أهل الحياة وما أحجى اللبيب بحس القول والعمل

والموت مدرجة للناس كلهم قصدا إليه بكره مجمع السبل

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والافلاس بالرجل

حيث يستعمل صيغة التعجب أربع مرات، (ما أقرب الموت!)، (ما أحجى!)، (ما أحسن!)، (ما أقبح!). وقد جاءت كلها على صيغة: ما التعجبية والفعل الماضي المبني على الفتح، ولهذه الصيغ دورها في إثارة الانتباه[4].

ويقول أيضا:[5]

ما للجديدين لا يبلى اختلافهما وكل غض جديد فيها بال

وهذا الأسلوب التعجبي من حال "الليل والنهار" اللذان لا يبليان على رغم طول تعاقبهما: (ما للجديدين لا يبلى اختلافهما) وكل ما سواهما يبلي ويزول، هو في الحقيقة ما يزيد من زهد الشاعر في هذه الدنيا، لا شك أن التعجب في شعر **الزهد** عنصر أساسي من عناصر الأسلوب وسمة أساسية من سماته، وأداة من أدواته التي يوظفها في مخاطبة الناس ووعظهم.

د- التكرار:تكثر ظاهرة التكرار في شعر الزهد، وتتعدد أشكال التكرار بشكل يجعل منه سمة مميزة للأساليب البلاغية، وبخاصة الخبرية والانشائية، ويعد التكرار من أساليب التأثير المباشر في نفوس وعقول المتلقين[6]. وحرصا من الشاعر على إقرار المواعظ وتثبيتها في القلوب يوظف التكرار، "لأنه يوفر له خاصية مهمة من خصائص الخطابة الوعظية بحيث نراه وكأنه يريد أن يقرع الأذن بتكرار لفظة بعينها

---

(1)- سعدية أحمد مصطفى: البقاء والفناء في شعر أبي العتاهية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2010، ص65.

(2)- ينظر، نزار عبد الله الضمور: الزهد في الشعر العباسي، ص191.

(3)- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، 1986، ص336.

(4)- ينظر، أحمد محمد عليان: أبو العتاهية حياته وأغراضه الشعرية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 202.

(5)- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص 328.

(6)- نزار عبد الله الضمور: الزهد في الشعر العباسي، ص 191.

من أجل تنبيه السامع أو زجره أو إبعاده عن الصدوف أو الملال"[1]. ومن نماذج التكرار في شعر الزهد، قول أبي العتاهية:

أي يـــوم يـــوم الســـباق وإذ أنـــ ـــت تنـــادي فمـــا تجيـــب المنـــادي
أي يـــوم يـــوم الفـــراق وإذ نفـــ ـــسك ترقـى عـــن الحشـــا والفـــؤا
أي يـــوم يـــوم الفـــراق وإذ أنـــ ـــت مـــن النّـزع في أشـــد الجهـــاد
أي يـــوم يـــوم الصـــراخ وإذ يلطمـــ ـــــن حـــــرَّ الوجـــــوه والأســـــاد
أي يـــوم نســـيت يـــوم التلاقـــي نســـــــيت يـــــــوم المعـــــــاد
أي يـــوم يـــوم الوقـــوف إلـى اللّـــ ـــــه ويـــوم الحســـاب والإشـــهاد
أي يـــوم يـــوم الخـــلاص مـــن النّـــ ـــــار وهـــول العـــذاب والأصـــفاد
كـم وكـم في القبـور مـن أهـل ملـك كـــم وكـــم فـي القبـــور مـــن قـــوّاد
كـم وكـم في القبـور مـن أهـل الـدنيا كـــم وكـــم فـي القبـــور مـــن زهـــاد
لـو بـذلت النصـح الصـحيح لنـفسي لـــم تـــذق مقلتـــاي طعـــم الرقـــاد
لـو بـذلت النصـح الصـحيح لنـفسي همـــت أخـــرى الزمـــان فـي كـــل واد

القارئ لهذه القصية يلاحظ طغيان التكرار للأساليب الانشائية مثل الاستفهام:

- أي يوم يوم السباق؟
- أي يوم يوم الفراق؟
- أي يوم يوم الفراق؟
- أي يوم ... يوم الخلاص؟
- أي يوم ... يوم التلاقي؟
- أي يوم يوم الوقوف؟
- أي يوم ... يوم المعاد؟

هذا التكرار للاستفهام يدفع السأم ويوقظ ذهن المتلقي لسماع الوعظ. والتركيز على وصف مشاهد متتابعة لمحطات غيبية تزيد من قوة الوعظ والنصح، ويكرر قوله:

- كم وكم في القبور؟
- كم وكم في القبور؟
- كم وكم في القبور؟

[1]- أحمد محمد عليان: أبو العتاهية حياته وأغراضه الشعرية، ص199.

حيث تشكل ظاهرة أسلوبية لخطيب بأسلوب شعري: "ويصوره لنا واقفا مخطب في الناس يعظهم ويزجرهم ويذكرهم بالموت والقبور وما بعد الموت والقبور"[1] . وبهذه الكيفية يمضي الشاعر في تكرار الأساليب المختلفة. ويصبح سمة فنية تميز شعر الزهد العباسي، وبخاصة في شعر أبي العتاهية.

3- الخيال: الخيال عنصر من عناصر التشكيل الفني في النص الأدبي، سواء أكان شعريا أو نثريا، وهو لا يقل أهمية عن اللغة والأسلوب. ويعد التصوير الفني أو الخيال سمة غالبة على الشعر، ومقوما من مقوماته، وخصيصة من خصائصه، وفي شعر الزهد يعتمد الشاعر على الخيال من أجل تشكيل الصورة في ذهن المتلقي. ومن نماذج الخيال في شعر الزهد العباسي، قول أبي العتاهية:[2]

بكى شجوه الاسلام من علمائه فما اكترثوا لما رأوا من بكائه
فأكثرهم مستقبح لصواب من خالفه مستحسن لخطائه
فأيهم المرجوّ فينا لدينه وأيهم الموثوق فينا برأيه

المتأمل لهذه الأبيات الشعرية يلاحظ أن ألفاظها فيها استعارات تشخيصية، حيث "يجعل أبو العتاهية من الإسلام شخصا يبكي على علماء الإسلام ومفكريه الذين تنكبوا جادة المنهج والسبيل القويم ولكن هؤلاء صمّوا آذانهم عن الاستماع هذا النداء"[3]. ويجسم الموت، فيقول:[4]

المنايا تجوس كل البلاد والمانيا تبيد كل العباد
لتنالن من قرون أراها مثل ما نلن من ثمود وعاد
هن أفنين من مضى من نزار هن أفنين من مضى من إياد
هل تذكرت من خلال من بنى الأصفر أهل القباب والأطواد

ويشخص الهوى، فيقول:[5]

قاتل الهوى إذا دعاك لفتنة قاتل هواك هناك كل قتال
وإذا عقلت هواك عن هفواته أصلقته من شين كل عقال

ففي هذين البيتين "يجسد أبو العتاهية الهوى بصورة إنسان، يتميز بالشر، وينبغي محاربته والفتك به، لأنه يدفع إلى الفتنة والأخطاء، وحينما تفعل ذلك تكون قد ضبطته وعقلته وقيدت حركاته المشينة"[6]. ويجسد التقوى في هيئة الماء العذب، فيقول:[7]

---

[1]- أحمد محمد عليان: أبو العتاهية حياته وأغراضه، ص 200-201.
[2]- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص15.
[3]- حسن البكور: دراسات في الشعر العباسي، الرؤيا والتشكيل، دار الخليج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص35.
[4]- أبو العتاهية: أبي العتاهية، ص 131.
[5]- عبد العزيز السلمان: مجموعة القصائد الزهديات، ط1، مطابع الخالد، الرياض، 2008، ج2، ص 276.
[6]- حسن البكور: دراسات في الشعر العباسي، ص36.
[7]-

وإذا ظمئـــت إلـى التقـى أســقيته مـــن مـــشرب عـــذب المـــذاق زلال

ويجسد الهدى في صورة إنسان وقور، من أطاعه سلم وغنم ولبس حلة الأعمال الصالحة، يقول أبو العتاهية:[1]

وإذا ســـكنت إلـــى الهـــدى وأطعتـــه ألبســـت حلـــة صـــالح الأعمـــال

ويخاطب قبر زائدة بن معن الشيباني كأنه إنسان، فيقول:[2]

ألا يـــا قبـــر زائـــدة بـــن معـــن دعوتـــك كـــي تجيـــب فلـــم تجبنـــي

هذه بعض ملامح الخيال في شعر الزهد في العصر العباسي، وهي كثيرة متنوعة؛ فيها المجاز وفيها التشخيص عن طريق الاستعارة، وغيرها من الأشكال البلاغية التي تحرك الخيال، فتجعل من الأمور المعنوية وكأنها شخوصا تتكلم وتتحرك.

(1)

(2)